﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾ [المائدة: 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ بَعْضِ فضائِحِ بني إسرائيل عامَّةً بعد ذِكْرِ فضائح النَّصارى خاصَّة

لَمَّا عمَّمَ اللّه سبحانه ذكرَ فضائح بني إسرائيل تارةً، وخَصَّصَ تارة أُخْرى، ختمَ بِذِكْرِ طامَّةٍ مِنْ طامّاتهم، حَمَلَهُمْ عليها العُجْبُ والبَطَرُ بما أنعم اللّه به عليهم، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ الآية[1]، فعُطِف هذا القول عَلَى الْمَقَالِ الْمُخْتَصِّ بِالنَّصَارَى، وهُوَ جُمْلَةُ ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ﴾ [المائدة: 17]؛ فهو مَقَالٌ آخَرُ مُشتَرَكٌ بَينَهُمْ وبَينَ اليَهُودِ يَدُلُّ عَلَى غَبَاوَتِهِم فِي الكُفرِ؛ إِذْ يَقُولُونَ مَا لَا يَلِيقُ بِعَظَمَةِ اللّه تَعَالَى[2]، فهو حكاية لما صدر عن الفريقين من الدعوى الباطلة، وبيان لبطلانها بعد بطلان ما صدر عن أحد الفريقين الكاذبيْنِ الخاطئيْنِ[3].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡيَهُودُ﴾: من الهَوْدِ: وهو التَّوْبةُ قال اللّه جَلَّ وعزَّ: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾؛ أي: تُبْنا إليك، هادوا يَهُودون هَوْدًا، وأصل الهَوْدِ إِرْوَادٌ وَسُكُونٌ، يَقُولُونَ: التَّهْوِيدُ: المَشيُ الرُّوَيدُ، وسُمّيت اليهود اشتقاقًا من هادوا؛ أي: تابوا ورجعوا، كأنّهم رجعُوا عن شيء إلى شيء، وكان اسمَ مَدْحٍ، ثُمَّ صار بعد نَسْخِ شريعتهم لازمًا لهم، وإن لم يكن فيه

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/66.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/155، 156.
(3) القاسِمي، مَحاسِنُ التَّأْويل: 4/94.

معنى المدح، ويُقالُ: نُسبوا إلى يهوذا وهو أَكْبَرُ وَلَدِ يعقوبَ، فأَدخلوا الأَلف واللَّامَ فِيهَا على إِرادَةِ النَّسَب، ومعنى هادوا هُنا: تَهَوَّدُوا، أَي صَارُوا يَهودًا[1].

2) ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: جَمْعُ نَصْرانٍ للمُذكَّرِ ونَصْرانَةٍ للمؤنث، والغالبُ في الاسْتِعْمَال النِّسبةُ نَصْرانيٌّ ونصرانيَّةٌ؛ وهُوَ مَأْخوذٌ من النَّصْرِ والنُّصْرَةِ بمعنى العون والإمداد، وأصل نَصَرَ يَدُلُّ عَلَى إِتيَانِ خَيرٍ وإِيتَائِهِ؛ وإِنَّما سُمِّيَ النَّصارى بذلك لقولهم: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 52]، وقِيلَ سُمُّوا بذلك انتسابًا إلى قريةٍ يُقالُ لها نَصْرانُ، وقيل لِنُزولِ عيسى عليه السلام قرية نَاصِرَةَ، فكان يُقال لَهُ عيسى النَّاصريُّ، ثُمَّ نُسِبَ قومُه إليه[2].

3) ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: المَرْجِع والمَعَادُ، يُقال: صِرْتُ إِلَى فُلان أَصِيرُ مَصِيرًا، وصار إلى كذا انتهى إليه، وأصل المصير هُوَ المَآلُ والمَرجِعُ الذي ينتهي إليه في تنقّلِه وتَحَرُّكِهِ، والمعنى هنا: المَرْجع إليه في كل الشُّؤونِ في الدُّنْيا والآخرة[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

دعوى اليهود والنَّصارى مَحَبَّةَ اللهِ لهم دعوى باطلةٌ شَرْعًا وحِسًّا وعَقْلًا

ادَّعى كل من اليهود والنصارى فقالوا إِنَّنا المُفَضَّلونَ؛ لأَنَّنا أبناءُ اللّه والمحبَّبون لَدَيهِ، قُلْ - أيُّها الرَّسول - ردًّا عليهم: لماذا يُعَذِّبُكُمُ اللّه بالذُّنوب التي ترتكبونها؟! فلو كنتم أحباءَه كما زعمتم ما عذَّبكم بالقتل والمسخ في الدُّنيا، وبالنَّارِ في الآخرَةِ؛ لأَنَّهُ لا يُعَذِّب أحبابه، وقل لهم: بل أنتم خلقٌ مثلُ سائر بني آدم، مخلوقون ومُحاسبون على أعمالكم، فيَغْفِرُ اللّه لمن يشاء بفضله، ويُعَذِّبُ من يشاء بعدله، وللّه وحده مُلْكُ السَّماوات والأرض ومُلْكُ ما بَينَهما، وإليه وَحدَهُ المَرجِعُ فيَحكُمُ بين عباده، ويُجازي كلًّا بما يَستَحِقُّ[4].

(1) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (هود)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 173، وابن عزيز، غريب القرآن، ص: 490.

(2) الرّاغب، المفردات، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر)، والنيسابوري، باهر البرهان: 1/89.

(3) الرَّاغِب، المُفْردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابن الأثير، النِّهايَة، وابْنُ فارِسٍ، مَقايِيسُ اللُّغَة: (صير)، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (عود)، والخَضيري، السِّراج، ص: 270، ومُقاتل، تفسير مُقاتِلٍ: 1/232.

(4) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب، ص: 148، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 111، وجماعة من علماء التّفسير، المختصر، ص: 111.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بديع اللَّفِّ[1] والإيجاز:

بيانُ اختصاصِ كلِّ فرقة منهم بهذا القولِ الشَّنيعِ

فقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ فيه إيجازٌ؛ حيثُ إنَّ ظاهِرَ اللَّفظِ: أنَّ جميعَ اليهودِ والنَّصارى قالوا عن جميعِهم ذلك، وليس كذلك، بل في الكلامِ لفٌّ وإيجازٌ، والمعنى: وقالت كلُّ فِرقةٍ من اليهودِ والنَّصارى عن نفسِها خاصَّةً: نحن أبناءُ الله وأحبَّاؤُه[2]، فَفي الكلام لَفٌّ وإيجازٌ يُحالُ المُستَمِعُ على تَفْريقِهِ بِذِهنِهِ[3].

مجيء الإضافة على خلاف مقتضى الظّاهر في معنى البُنُوَّةِ:

بيانُ شِدَّةِ مُبالَغَتِهِمْ في دعوى العِناية والاختصاصِ بمحبّةِ الله وقُرْبِ المنزلة منه

لمّا كانت الإضافة بمعناها الحقيقي ممتنعةً عقلًا دلَّت على أنّها جاءت على خلافِ مقتضى الظّاهر، وفي توجيه التركيب الإضافي وجوه هي:

الأَوَّلُ: أَنَّ يكونَ مِنْ بَابِ حَذفِ المُضَافِ، والتَّقْديرُ: نَحنُ أَبنَاءُ رُسُلِ اللهِ[4]، فأُضِيفَ إلى الله ما هو في الحقيقة مُضافٌ إلى رسولِ الله، ونَظِيرُهُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفَتْح: 10].

والثَّاني: أَنَّ لَفظَ الابْنِ كَمَا يُطلَقُ على ابنِ الصُّلبِ، فقَدْ يُطلَقُ أَيضًا على مَنْ يُتَّخَذُ ابنًا، واتِّخَاذُهُ ابنًا بِمَعنَى تَخْصِيصِهِ بِمَزِيدِ الشَّفَقَةِ والمَحَبَّةِ، فالقَومُ لَمَّا ادَّعَوا أَنَّ عِنَايَةَ اللهِ بِهِمْ أَشَدُّ وَأَكمَلُ مِنْ عِنَايَتِهِ بِكُلِّ مَن سِوَاهُمْ، لَا جَرَمَ إِنْ عَبَّرَ النَّظمُ عَن دَعوَاهُم كَمَالَ عِنَايَةِ اللهِ بِهِمْ بِأَنَّهُمْ ادَّعَوا أَنَّهُم أَبنَاءُ اللهِ، فأَرَادُوا أَنَّ اللهَ تعالى لَهم كَالأَبِ فِي الحُنُوِّ والعَطفِ، وهمْ كَالأَبنَاءِ لَهُ فِي القُربِ والمَنزِلَةِ[5]،

(1) هو أن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدّد ثمّ يذكر أشياء على عدد ذلك كلّ واحد يرجع إلى واحد من المتقدّم ويفوّض إلى عقل السّامع ردّ كلّ واحد إلى ما يليق به، ينظر: القزوينيّ، الإيضاح، ص: 503.

(2) أبو حَيّان، البَحرُ المُحيط: 4/211.

(3) ابْنُ عَطِيَّة، المحرر الوَجيز: 2/172.

(4) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/120.

(5) البَغَويّ، مَعالِمُ التَّنْزيل: 3/33.

والوالدُ إذا سَخِطَ على ولدِه في وقتٍ يَرضَى عنه في وقت آخر[1]، فهمْ مُقرَّبون عنده قُربَ الأولادِ من والدهم، فحِينَئِذٍ لا حَذْفَ في الكَلَام بل هُوَ من قبيل ذكرِ المَلزومِ وإرادة اللَّازم[2].

الثَّالِثُ: أَنَّ اليَهُودَ لَمَّا زَعَمُوا أَنَّ عُزَيرًا ابنُ الله، والنَّصَارَى زَعَمُوا أَنَّ المَسِيحَ ابنُ الله، ثُمَّ زعموا أنَّ عُزَيرًا والمَسِيحَ كَانَا مِنْهُم، صَارَ ذَلِكَ كَأَنَّهُمْ قَالُوا نَحنُ أَبنَاءُ الله، فأَقَارِبُ المَلِكِ إِذَا فَاخَرُوا إِنسَانًا آخر يَقُولُونَ: نَحنُ مُلُوكُ الدُّنيَا، ونَحنُ سَلَاطِينُ العَالَم، وغَرَضُهُمْ مِنْهُ كَوْنُهُمْ مُخْتَصِّينَ بِذَلِكَ الشَّخصِ الذي هو المَلِكُ والسُّلطانُ فكذا الأمر هنا[3].

فيكونُ مُرادُهم بكونِهم أبناءَ الله تعالى أنَّه لمَّا أرسل إليهم الابن على زعمهم، وأرسل لغيرهم رُسُلَ عباده، دلَّ ذلك على امتيازهم عن سائر الخلق، وأنَّ لهم مع الله تعالى مُناسَبَةً تامَّةً وزُلْفى تقتضي كرامةً لا كرامةَ فوقها، كما أنَّ المَلِكَ إذا أرسل لِدَعْوَةِ قوم أحدَ جُنْدِهِ، ولآخرين ابنَه عَلِموا أنَّه مُريدٌ لتقريبهم، وأنَّهم آمنون من كلِّ سُوءٍ يَطْرُقُ غَيْرَهُمْ[4].

وعليه يكون المُضَاف مَحذُوفًا وهو (ابْنَيْهِ)، فلا إشكالَ بأنَّهم لا يقولون لأنفسهم نحن أبناء الله، وإنَّما قَالُوا ذلك في عيسى وعزيرٍ عليهما السلام، فالمُختَصُّ بِشَخصٍ يُطلَقُ عليه ما يُطلَقُ عَلَى ذلك الشَّخْصِ مَجَازًا ومُبَالَغَة، إمَّا مجازًا في الحذف، أو مجازًا في اللَّفْظ، فالمُرَاد أنَّ أصلَ الكَلَام: نَحْنُ أشياع ابني الله؛ فحُذِفَ المُضَاف إليه، وأقيم المُضَاف مُقامَهُ[5].

وحاصلُ دعواهم أنَّ لهم فَضلًا ومزيَّة عند الله تعالى على سائر الخلق[6]، وأنَّى لهم ذلك، فالبُنُوَّةُ تقتضي المُجانسة، والحقُّ عنها مُنَزَّهٌ، والمحبَّةُ بين المُتَجانِسَينِ تقتضي الحظوة والمؤانسةَ، والحقُّ سُبحانَهُ عن ذلك مُقَدَّسٌ[7].

(1) السَّمَرقنديّ، بحر العلوم: 1/379.
(2) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/430.
(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/329، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/272، 271.
(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/274.
(5) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/430.
(6) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/272.
(7) القشيري، لطائف الإشارات: 1/414.

دلالةُ عطفِ المحبَّةِ على ادّعاءِ البُنُوَّةِ:

المبالغةُ في بيان شدَّة القُرب المقرونِ بالرِّضَا

عطف تعالى ﴿وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ على ﴿أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ﴾؛ لأَنَّهُمْ قَصَدُوا أَنَّهُم أَبنَاءٌ مَحبُوبُونَ؛ إِذْ قَد يَكُونُ الِابنُ مَغضُوبًا عَلَيهِ[1].

السِرُّ في مجيء جوابِ الشَّرط عَلَى طَرِيقَةِ الإلزام والِاحْتِبَاكِ[2]:

تبكيتُهم وتقريعُهم وإلزامُهم بما اعترفوا به من وقوعِ العذابِ عليهم

فقوله: ﴿قُلۡ﴾ إلزامًا لهم وتبكيتًا[3]، ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾؛ أي: فإنْ صحَّ ما زعمتم من مَحَبَّتِهِ لكم فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بذنوبكم، فالفاءُ جوابُ شَرطٍ مُقَدَّرٍ[4]، يُرِيدُ إِنْ كَانَ الأَمرُ كَمَا زَعَمتُمْ أَنَّكُم أَبنَاؤُهُ وأَحِبَّاؤُهُ؛ فإنَّ الأَبَ لَا يُعَذِّبُ وَلَدَهُ، والحَبِيبَ لَا يُعَذِّبُ حَبِيبَهُ، وأَنتُمْ مُقِرُّونَ أَنَّهُ مُعَذِّبُكُمْ؟؛ يعني يُحرِقُكُم؛ لأنَّ اليهود كانوا مُقرِّينَ بأنَّه يُحَرِّقُهُمْ أربعين يومًا، ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾ [البقرة: 80]؛ أو من كان في هذا المنصب والقُربِ لا يُذنِبُ، وإن أَذنَبَ لا يُعَذَّبُ بِذُنوبِهِ، وقد عذّبكُم فمَسَخَكم قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ؛ فيكون مَعنَى ﴿يُعَذِّبُكُم﴾: عَذَّبَكُمْ، فهُوَ بِمَعنَى المُضِيِّ؛ لِأَنَّ اللهَ سُبحَانَهُ لَا يَحتَجُّ عَلَيهِم بِشَيءٍ لَم يَكُنْ بَعدُ؛ لِأَنَّهُم رُبَّمَا يَقُولُونَ: لَا نُعَذَّبُ غَدًا، بَل يَحتَجُّ عَلَيهِم بِمَا عَرَفُوهُ[5]، وفي الكلامِ إلزامٌ بالحجّة عليهم وتبكيتٌ لهم[6].

والحاصل أنَّه إذا قيل: لو كنتم أبناءَه وأحباءَه، فلِمَ عذَّبكم؟، لكن اللَّازم مُنتَفٍ، فَرُبَّمَا مَنَعُوا انتفاءَ اللَّازم، وطالبوا بالحجَّة،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/156.

(2) الإختباك: هُوَ أَنْ يُحذَفَ مِنَ الأَوائِلِ ما جَاءَ نَظِيرُهُ أَوْ مُقابِلُهُ في الأَواخِرِ، ويُحذَفَ مِنَ الأَواخِرِ ما جاءَ نَظِيرُهُ أَوْ مُقابِلُهُ في الأَوائِلِ، مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ١٣﴾ [الإنسان: 13]، فقد قيل في الزَّمهرير قولان، فقيل: هو القَمر في مقابلة الشَّمس، وقيل: هو البَرْد، فأفاد بالشَّمس أنَّه لا قمر فيها، وبالزَّمهرير أنَّه لا حرَّ فيها، فَحُذِفَ مِن كلٍّ شقٌّ مُقابِلَ الآخَر، يُنظَر: السُّيوطي، التَّحبير في علم التَّفسير، ص: 45.

(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/272.

(4) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 4/230.

(5) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/121، والبَغَويّ، مَعالِمُ التَّنْزيل: 3/34، والسَّمَرقنديّ، بحر العلوم: 1/379.

(6) البَيْضاويّ، أَنوارُ التَّنْزيل: 2/120، والقونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/430.

وإذا قيل: لِمَ عذّبكم في الدُّنيا بالمسخِ وفي الآخرة بما تزعمون، تمَّ الإلزامُ على النَّهج المعتاد المشهور[1].

والتَّعذيبُ بالذَّنب ثمرةُ الغضبِ المُنافي للمحبَّةِ، فلو كانت المحبَّةُ قائمةً لم يكن هُناك ذنوبٌ يَستَوجبونَ عليها العذابَ من المَسْخِ قردةً وخنازيرَ، وتَسَلُّطِ أعدائهم عليهم يستبيحونهم ويستعبدونهم، ويَسبُونَ ذراريهم، فالمُحِبُّ لا يَفْعَلُ هذا بحَبيبه، ولا الأبُ بابنه، فمعلوم أنَّ الأبَ قد يُؤَدِّبُ ولدَه إذا أذنب، والحبيبُ قد يهجرُ حبيبَه إذا رأى منه بعضَ ما يكره، ومعلومٌ أيضًا أنَّ الرَّحمن الرَّحيم لا يفعلُ هذا بأمّةٍ إلّا بعد فرطِ إجرامِها وعُتُوِّها على الله، واستكبارها عن طاعتِه وعبادتِه؛ وذلك ينافي كونهم أحبابَه، فلو أحبّوه لما ارتكبُوا من غضبه وسَخَطِه ما أوجب لهم ذلك، ولو أَحَبَّهُمْ لأَدَّبَهُمْ ولم يعذّبهم، فالتَّأديب شيءٌ، والتَّعذيب شيءٌ، والتَّأديبُ يُرادُ به التَّهذيبُ والرَّحمةُ والإصلاحُ، والتَّعذيبُ للعقوبةِ والجزاءِ على القبائح فهذا لَونٌ، وهذا لَونٌ[2].

وبالجُملَةِ فإنَّهُم رَأَوا لِأَنْفُسِهم فَضلًا، فرَدَّ الله عَلَيهِم قولَهُم بأن فقَالَ: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾؛ فلم تكن أجابتهم تحتمل إلا أحد وجهين، إمَّا أن يَقُولُوا: هُوَ يُعَذِّبُنَا، وقد عذَّبهم في الدُّنيا بالقتل والأسرِ والمسخِ فيقال لَهُمْ: فَلِمَ إِذًا أَبْنَاءَهُ وَأَحِبَّاءَهُ؛ لأنَّ الحَبيبَ لَا يُعَذِّبُ حَبِيبَهُ؛ وأَنْتُمْ تُقِرُّونَ بِعَذَابِهِ لكمْ، فقد اعترفتم بأنَّه سَيُعذِبُكُمْ بالنَّار أيامًا معدوداتٍ؛ فذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى كَذِبِكُم[3]، فامتَنَعَ بِتَعذِيبِهِمْ أَنْ يَكُونُوا أَحِبَّاءَ الله[4]، وأفاد الاستفهام الإنكاريُّ هنا معنى التَّوبيخ والتَّعجب.

نكتةُ التّعبير بقوله ﴿وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾:

لمّا نسب الله تعالى هذا القول إلى اليهود والنّصارى كان في التّعبير به إلزامٌ عليهم وحجّةٌ رادّةٌ لقبيح قولِهم، فإنَّ ﴿وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ جمعُ حبيبٍ بمعنى محبٍّ، فعُبِّرَ به؛ لِأَنَّ المُحِبَّ لَا يَعْصِي مَنْ يُحِبُّهُ، بِخِلَافِ المَحْبُوبِ فإِنَّهُ كَثِيرًا مَا يَعْصِي مُحِبَّهُ.

(1) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/227.
(2) ابنُ القَيِّم، بدائع الفوائد: 4/150.
(3) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/120، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/156.
(4) أبو حَيّان، البَحرُ المُحيط: 4/213.

دلالةُ العَطْفِ بِحَرفِ الإضرابِ الانتقالي:

إبـطـالُ دعـوى البُنُـوَّةِ وإثباتُ بشريَّة المسيحِ عليه السلام

فقد أَضرَبَ عَنِ الاستدلَالِ في قوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾ مِنْ غَيرِ إبطَالٍ لَهُ، إِلَى استدلَالٍ آخَرَ مِنْ ثُبُوتِ كَونِهِمْ بَشَرًا مِن بَعضِ مَنْ خَلَقَ، فهُم مُسَاوُونَ لِغَيرِهِمْ في البَشَرِيَّةِ والحُدُوثِ، وهُمَا يَمنَعَانِ البُنُوَّةَ؛ لأنَّ القَدِيمَ لَا يَلِدُ بَشَرًا، والأَبَ لَا يَخلُقُ ابنَهُ، فامْتَنَعَت دعوى البُنُوَّةِ، كما امتَنَعَ بِتَعذِيبِهِمْ قبل ذلك أَنْ يَكُونُوا أَحِبَّاءَ اللّٰه، فبَطَلَ الوَصفَانِ اللَّذَانِ ادَّعَوهُمَا[1].

وقوله سُبْحانه: مِمَّنْ خَلَقَ مُتَعَلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةَ ﴿بَشَرٌ﴾؛ أي: بَشَرٌ كائن من جنس من خَلَقَهُ اللّٰه تعالى من غير مزيَّةٍ لكم عليهم[2].

فأُخِذَتِ النَّتِيجَةُ مِنَ البُرهَانِ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾؛ أَي: يَنَالُكُم مَا يَنَالُ سَائِرَ البَشَرِ، وفي هَذَا تَعرِيضٌ أَيضًا بِأَنَّ المَسِيحَ بَشَرٌ؛ لِأَنَّهُ نَالَهُ مَا يَنَالُ البَشَرَ مِنَ الأَعرَاضِ والخَوفِ، وَقد زَعَمُوا أَنَّهُ نَالَهُ الصَّلبُ والقَتْلُ[3]، وأفاد تنكير ﴿بَشَرٌ﴾ معنى التّحقير والتَّقليلِ من شأنِهم.

سِرُّ الاحتراس(4) بَعْدَ ذِكْرِ وصفِ البَشريَّةِ:

دفـعُ تـوَهُّـمِ الـنَّـصـارى في اسـتـحـقـاقِ العذاب بمُوجب البشريَّة

فقوله﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾: فيه احتراسٌ؛ لأنَّه لَمَّا رتَّبَ على نيل العذاب إيَّاهم أنَّهم بشرٌ، دفَع توهُّمَ النَّصارى أنَّ البشريَّة مقتضيةٌ استحقاقَ العذابِ بوراثةِ تبعةِ خَطيئة آدَم، فقال: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ أي: مِن البَشَرِ، ويُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ[5].

---

(1) أبو حَيّان، البَحرُ المُحيط: 4/213.

(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/273، والقاسِمي، مَحاسِنُ التَّأْويل: 4/95.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/157.

(4) الاحتراس أو التَّكميل: اسمان أُطْلِقا على مسمًّى واحد، هو زيادة إطنابيّةٌ في الكلام يَدْفَع بها المتكلّم إيهامًا قد يُفهم من كلامه.

(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/157.

معنى لامِ الجرِّ في قوله ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

إفادةُ الملك والاختصاصِ بدلالةِ الحرفِ والسِّياقِ.

اللَّام في الاسم الأحسن ﴿وَلِلَّهِ﴾ لِلمُلْكِ والاختصاصِ، فهُوَ المُنشِئُ الخَالِقُ، المُلْكِ تَدُلُّ عَلَى القُدرَةِ البَاهِرَةِ[1]، فالخلقُ كلُّهم عبيدُه وإماؤُه، وهو خالقُهم ورازقُهم، وحكمُه نافذٌ فيهم، وفي كلِّ شيءٍ دلالةُ ربوبيَّته ووحدانيَّته، وهو وحدَه المُستَحِقُّ للعبادةِ؛ لأنَّه المالكُ المدبِّرُ لكلِّ ما في السَّماواتِ وما في الأرض[2].

وقد أكدَّ معنى الاختصاصِ بتقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿وَلِلَّهِ﴾؛ الّذي يُفيد الحصرَ، فهِيَ لله خَلْقًا ومُلْكًا[3]، لا لغيره أصلًا؛ لا استقلالًا ولا اشتراكًا، وأكَّدَهُ وعمَّمه بالطِّباق بَينَ لَفظَتَيْ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلْأَرْضِ﴾.

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ:

عمومُ ملكِ الله لكلِّ ما يظنُّ الإنسانُ القدرةَ على تملُّكه، وفيها إشارةٌ غيبيَّةٌ.

وخَصَّ السَّماواتِ والأَرضِ بالذِّكر من بَينِ المخلوقات؛ لِأَنَّهَا أَعظَمُ مَا يُرَى مِنَ المَخْلُوقَاتِ وقَدَّمَ السَّماوات لِعِظَمِهَا[4].

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرور في جملةِ التَّذييل:

بيانُ الاختصاصِ بِتَعَلُّقِ ذَلِكَ المَصِيرِ بِتَصَرُّفِ الله المَحْضِ.

فقوله ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾: تذييلٌ لِمَا قَبلَهُ، من ذِكرٍ للمغفرة والعذاب؛ لأنَّ الرُّجوعَ يكونُ للحسابِ والجزاءِ[5]، وقَدَّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿وَإِلَيْهِ﴾ عَلَى ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾؛ لإِفَادَةِ اختصاص الرّجوع إليه سبحانه لا إلى غَيرِهِ استقلالًا أو اشتراكًا؛ بمعنى تَعَلُّقِ ذَلِكَ المَصِيرِ بِتَصَرُّفِ اللهِ المَحْضِ[6].

(1) أَبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 2/750.
(2) الماورديّ، النكت والعيون: 1/360.
(3) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 1/165، والقونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 5/494.
(4) أَبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 2/750.
(5) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 1/276، والقاسِمي، مَحاسِنُ التَّأْويل: 2/241.
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 25/64.

سِرُّ الكنايةِ عن الرُّجوع بالمصير:

بيانُ أنّ المرجعَ لا يكونُ إلّا إلى الله وحده وهو المجازي لعبادِه بما يستحقّون

عبارةُ ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾: كنايةٌ عن الرُّجوع إلى الله بالحشرِ والمعادِ في الآخرة، فيُجازي المُحسِنَ بإحسانِه والمُسيءَ بإساءَتِه بما يَستَدعيه عِلمُهُ من غير صارفٍ يُثْنيه ولا عاطفٍ يَلويه[1].

دلالةُ التَّعريفِ في لفظةِ ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾:

بيانُ شمولِ المآلِ للخَلقِ أجمعين

التَّعريفُ في ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ للعهدِ العلميِّ، أي المصير المعلوم بالحشرِ والحسابِ والمجازاة؛ وعبارةُ ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ عامَّةٌ شاملةٌ لمآلِ العبدِ في كلِّ أمرٍ وكلِّ نازلةٍ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحُبّ والوُدّ:

الـــوُدُّ خـالـص الحُبِّ؛ والحُبُّ مـا اسـتـقـرَّ في القلبِ، والوُدُّ ما ظهر في السُّلوك

الحبُّ: ميلُ النَّفس إلى ما تراه وتظنُّه خيرًا[3]، على سبيل اللُّزوم والثَّبات[4]، فمُجرَّدُ تَعلُّقِ القلب يُسَمَّى حُبًّا[5]، وأمَّا الوُدُّ فهو خالص الحُبِّ وألطفُه وأَرَقُّهُ وهو من الحُبِّ بمنزلة الرَّأفة من الرَّحمة؛ فالوُدُّ أَصفَى الحُبِّ وأَلطَفُهُ[6]، قال تعالى﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾ [الرُّوم: 21]، وفي الوُدِّ معنى الصِّلَةِ وبَذلِ ما يَزيدُ في الحبِّ، فمَشاعِرُ الميل نحو المحبوب حُبٌّ، والابتسامة في وَجهِه وبذل النُّصح والهديَّة وُدٌّ، ومنه قوله تعالى: ﴿تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ [المُمتَحِنَة: 1]؛ أي: بأسباب المحبَّة من النَّصيحة[7]، ومن أسماء الله تعالى (الوَدُودُ)، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤﴾ [البروج: 14]؛ أي: المحبُّ لعباده يَصِلُهم ويُمِدّهم بِرَحْمَتِه[8].

---

(1) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/274، والقونويّ، حاشيةُ القونويّ على البيضاوي: 7/431.
(2) العليمي، فتح الرَّحمن: 1/411.
(3) الرَّاغب، الذَّريعة إلى مكارم الشَّريعة، ص: 256.
(4) الأَزْهَريّ، تَهْذيبُ اللُّغَة، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسَانُ العَرَب: (حبب).
(5) الهروي، منازل السَّائرين، ص: 88.
(6) ابن القيم، روضة المحبين، ص: 46.
(7) الرَّاغِب، المُفردات: (ودد).
(8) الرَّاغِب، المُفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ودد).

فكُلُّ وَدُودٍ مُحِبٌّ وليس كلُّ مُحِبٍّ وَدودًا.

العذاب والعقاب والألم:

العِقَابُ يُنبِئُ عَنِ استِحقاقٍ، وسُمِّيَ بِذلِكَ لِأَنَّ الفاعِلَ يَستَحِقُّهُ عُقَيبَ فِعلِهِ، ويَجوزُ أَنْ يَكونَ العَذابُ مُستَحَقًّا وغَيرَ مُستَحَقٍّ، فالعِقابُ يَقتَضي بِظاهِرِهِ الجَزاءَ عَلى فِعلَةِ المُعَاقَبِ عَقِبَ فِعلِهِ، والعَذابُ لَيسَ كَذلِكَ، فبَينَهُما عُمومٌ وخُصوصٌ[1].

العقابُ يُنبِئُ عَنِ استِحقاقٍ ويكون عُقَيبَ الفِعلِ والعذابُ أَعَمُّ

والعذاب أَخَصُّ من الألم؛ وذلك أنَّ العذاب هو الألمُ المُستَمِرُّ الثَّقيل[2]، والألمُ الوجعُ، والأليمُ: المؤلِمُ من العَذَابِ الَّذي يبلغُ إيجاعُه غَايَة البلُوغ، ويَكُونُ الألم مُستَمِرًّا وغَيرَ مُستَمِرٍّ فقَرْصَةُ البعوضِ ألمٌ وليس بعذاب، فإن اسْتَمَرّ ذلك يُقال عذَّبَني البعوضُ اللَّيلةَ، فكلُّ عذابٍ ألمٌ وليس كلُّ ألمٍ عذابًا، وأَصلُ الكلمة الاستمرار، ومنه يُقال: ماء عَذْبٌ لاستمرائِهِ في الحَلقِ، واشتقاقه من عَذُبَ الشَّيءُ إذا اسْتَمَرَّ وجَرى[3].

العـذاب ألَـمٌّ مُستَمِرٌّ ثَقيلٌ

المصير والمآب والمرجع:

المصيرُ هو المآلُ، والمآبُ هو الرُّجوع إلى المستقرِّ، والرُّجوع تحوّلٌ عن الاتجاه أو الحال إلى عكسه.

هي ألفاظ متقاربة في المعنى، فالمصيرُ: يدلُّ على التَّحوّلِ إلى غايةٍ أو مَجْمَع؛ ليكون المآل والمُنتهى، ومنه قوله تعالى: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: 285]، وقد ورد في القرآن الكريم ثمانيَةً وعشرين مرّةً، وورد مرّة واحدة بصيغة الفعل المضارع، في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: 53].

(1) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويَة، ص: 364.
(2) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 654.
(3) المَنَاويّ، التَّوقيف، ص: 239، والكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 174، والعَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويَة، ص: 239.

والمآب: رجوعُ الشَّيءِ إلى مُستَقَرِّهِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]، وقوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ٢٢﴾ [النَّبأ: 21، 22].

والمرجعُ: مصدر ميمي، أو اسم زمان، الرُّجوع هو العود إلى ما كان منه البدء، والرَّجْع: الإعادة تحوّلٌ عن الاتجاه أو الحال إلى عكسه - كما يتردد الماء في الغدير؛ لأنَّه محتبس فيه لا يسترسل بعيدًا، وكلُّ ما في القرآن من: (تُرْجع، تُرْجَعون، يُرْجع، راجعون، مرجعكم، مرجعهم) فهي إلى الله [1] ﷻ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صير)، (أوب)، (رجع).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن، سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 8 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-60-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 8 : سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-60-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8115353 بتاريخ 2023/03/22م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»